**المحاضرتان العاشرة والحادية عشرة :**

**نظرة في طبقات النحاة0**

**مصطلح الطبقة من صنع المؤرخين الذين أرخوا للحركة اللغوية فظهرت كتب الطبقات فضلاً عن كتب أخبار النحاة0 و قسَّم هؤلاء المؤرخون علماء المدرستين على نحو ما سنبين جانباً منه فيما بعد , ومن المعروف أن علم النحو نما نمواً متدرجاً وانه كان في أول نشأته محدود الدائرة، ممتزج باللغة والأدب ثم أخذ ميدانه يتسع من طريق اهتمام العلماء بتمحيص مسائله ومباحثه وتدوين هذه المسائل والمباحث في كتب خاصة بالنحو , فظلَّـت هذه الكتب تكبر شيئاً فشيئاً حتى وصلت إلينا وهي تلمُّ بجميع أطراف البحوث النحوية . ووصلت في تمحيصها إلى أعمق حدود البحث والاستيعاب 0**

**وكانت طريقة دراسة النحو تسير بحسب الطريقة المعروفة في تلك العصور وهي طريقة التلقي الشفهي والمقرون بالإملاء أو بقراءة بعض المؤلفات على الأستاذ أو الشيخ , فكان المتعلم يأخذ عن الشيخ أو أستاذه ما يلقيه أو يمليه أو ما يقرأ من كتب يشرح عباراتها ويعلق على مسائلها ويشرح شواهدها ويضيف إلى ذلك ما يعنُّ له من رأي أو توجيه أو تعليل. فالدرس النحوي يعتمد منهج الإملاء والإقراء وهذا المنهج يوفِّر للدارس فرصة سماع اللغة وتلقي استعمالاتها بأداءٍ صحيح ، مثلما يوفِّر للمشايخ فرصة تصحيح الخطأ وتصويب الصحيح لما ينطقه تلامذتهم حتى كأنّ الجميع في مخبر صوتي وتقويم للأداء اللغوي بمستوياته كافة لما يتيحه هذا المنهج من شمولية تحصيل علوم اللغة والدّربة على نطقها نطقاً صحيحاً .**

**وكان الطلبة يتصدون للتعليم بعد أن يتوفروا على نصيب وافر من العلم ، ويُقصد إليهم في حلقات الدرس وأماكن البحث والمناظرة فتنشأ طبقة جديدة من الطلبة ليصبحوا فيما بعد أساتذة وهكذا دواليك . ويشابه هذا ، في عصرنا ، ما يجري في الحوزات العلمية التي تُعنى بعلوم الشريعة وعلوم اللغة وعلوم الحقيقة أو العرفانيات , فقد ترى تلميذاً في الصباح تجده شيخاً في المساء وهذا مأخوذ من ذاك أي : من تراثنا وما جاء فيه من طرائق التعليم , ولو عدنا للنظر فيما تحدثنا فيه قبل هذه المداخلة لوجدنا أن ذلك أدى إلى نشوء طبقات متعاقبة , أخذ اللاحقون منهم عن السابقين. ومن هؤلاء سبع طبقات من البصريين وخمس طبقات من الكوفيين , وقد احتملوا أعباء البحث في النحو وذللوا صعابه ووصلوا به في نهاية القرن الثاني الهجري وأوائل العاشر الميلادي إلى وضعٍ ألمُّوا فيه بجميع مسائله ومحصوها تمحيصاً شاملاً 0**

**الطبقة الأولى من البصريين**

**إمام هذه الطبقة أبو الأسود الدؤلي (ت69هـ) وقد أخذ عنه في النحو أربعة من علماء البصرة هم :-**

**عنبسة الفيل ( توفي في القرن الأول للهجرة )**

**نصر بن عاصم الليثي ( ت90هـ )**

**يحيى بن معمر ( ت129هـ )**

**ميمون الأقرن**

**والمشهور أن أبا الأسود هو أول من قاس النحو واتسع في بحثه , وقال بعضهم أنه تلميذ نصر بن عاصم الليثي , وقال آخرون غير ذلك , ويبدو أن مؤرخي النحو نظروا إلى جهود هؤلاء كلٌ بمنظاره , فمنهم من لاحظ أهمية ما وضع أبو الأسود , فقال : هو واضع علم النحو , ونظر آخرون إلى جهود سواه فثمنوها ونسبوا إليه بسببها وضع النحو0**

**وعلى أية حال فإن أبا الأسود من أقطاب العلماء الذين تلقوا علمهم عن أمير المؤمنين( عليه السلام ) , ومن أعماله في ميدان النحو أنه ضبط المصحف بعلامات ابتكرها فوضع نقطة فوق الحرف للدلالة على الفتحة ونقطة في أسفله للدلالة على الكسرة ونقطة بجانبه للدلالة على الضمة ,وقد أخذ الناس هذه الطريقة عنه فشكلوا فيها الحروف وتفننوا بعده في شكلها فرسموها مربعة  
 ( ) أو مدورة مسدودة الوسط ( ) أو خالية ( ) [مفتوحة الوسط], واخترعوا كذلك علامات للحرف المشدد والسالم وحرصوا على رسم ذلك بمداد يخالف في اللون مداد الكتابة , فيكون أبو الأسود هو الذي وضع علامات لإعراب المصحف أو لضبط قراءته 0 وينسب إليه كذلك وضع أبواب في النحو من مثل : بابي العطف والنعت وبابي التعجب والاستفهام وباب إن وأخواتها وسواها 0**

**وكان علماء هذه الطبقة على إلمام تام باللغة والقراءات إلى جانب إلمامهم بالنحو في هذا العهد في طور التكوين ولم يظهر من مسائله إلا قدر يسير 0**

**الطبقة الثانية من البصريين**

**ومن أشهر علمائها ثلاثة هم :-**

**أبو عمرو بن العلاء ( 70 -154هـ )**

**عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي ( ت117هـ )**

**عيسى بن عمر الثقفي ( ت149هـ )**

**وقد عُني رجال هذه الطبقة بالقياس والتعليم وزيادة الاهتمام بتتبع النصوص واستقراء الشواهد وجمع مسائل النحو المعروفة وقتذاك في كتب . ويقال إن عيسى بن عمر الثقفي ألَّف كتابين سمى أحدهما (الجامع ) والآخر ( الإكمال ) وقد جعل أساس كتابيه هذين ما كان أكثر ذيوعاً في الاستعمال , وسمى ما شذ عن ذلك (لغات) , وكان يخطّئ المشهورين من شعراء العرب في بعض أشعارهم كالنابغة الذبياني , ولعل سبب ذلك ما عُرف عنه من تشدد وتقعر في اللغة فينسب إليه القول المشهور حين سقط عن حماره واجتمع الناس عليه : « ما لكم تكأكأتم عليَّ كتكأكأكم على ذي جنَّةٍ , افرنقعوا عنّي » 0**

**فيمكن القول إن النحو في عهد الطبقتين المتقدمتين كان في طور التكوين وفي مرحلته الأولى , على أن جهود الطبقتين هاتين كانت أساساً للعطاء العلمي للطبقات اللاحقة لها ,ومؤلفات هذا العصر كانت مزيجاً من النحو واللغة والأدب لأن هذه الفروع من الثقافة العربية لم يكن قد إنماز بعضها من بعض 0**

**الطبقة الثالثة البصرية والطبقة الأولى الكوفية**

**وشيخ الطبقة الثالثة هو الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ) , وقد أنعم الله عليه بعقلية جبارة مبتكرة وفضلُهُ على علم النحو كبير , فالخليل عكف على العلم يخترع فيه ويستنبط أصوله من فروعه على طريقة لم يُسبق إليها , فهو أول من ابتكر المعجمات , وكتابه (العين) أول معجم في العربية , وهو أول مبتكر لعلم العروض وحصر كل أشعار العرب في بحوره , وأول من اخترع علم الموسيقا في العربية , وجمع فيه أصناف النغم , وقد بسّط النحو الذي نعرفه اليوم , فكان الخليل يُعطي علمه لطلابه لا يضنُّ عليهم بشيء ويعطيه مباشرة في حلقة الدرس فلم يكتب كتاباً بيده ، وليس من مؤلفاته ما حققه الدكتور فخر الدين قباوة وهو المسمى (الجمل في النحو) وهو مما ألفه أحمد بن شقير( ت ) حققه فائز فارس بعنوان : المحلى " وجوه النصب " و عُرف عن الخليل أنه يخترع العلم ثم يترك أمر تدوينه لطلابه , فعل ذلك في اللغة فوضع فكرة ومنهج كتاب (العين) وأعطى مادته اللغوية وترك كتابته لتلميذه الليث بن نصر , وفعل ذلك في النحو فهو الذي بسط النحو واستخرج مسائله وعللها مكتفياً بذلك بما أفضى إلى سيبويه من علمه وبما لقنه من دقائق نظره ونتاج فكره , فحمل سيبويه ذلك عنه وألَّف فيه (الكتاب) وهو معجزة النحو الكبرى لذلك سمّاه النحاة : (قرآن النحو). واكتُفي بالكتاب اسماً له اعتزازاً وتكريماً , وكان العلماء يقولون لمن قرأ الكتاب , ويسألون من لم يقرأه : هل ركبت البحر ؟ , وقد فُسر هذا القول خطأً بأن المقصود به صعوبة الكتاب , والصحيح أنه بحر لأنه ألمّ بكل شاردة وواردة في نحو العربية 0 ومن علماء هذه الطبقة يونس بن حبيب (ت182هـ) وقد أخذ عن أبي عمرو بن العلاء كما أخذ عنه سيبويه والكسائي والفرّاء 0**

**أما شيخ الطبقة الأولى الكوفية فهو أبو جعفر محمد الرؤاسي ( ت190هـ) , وسُمي الرؤاسي لعظم رأسه , على رواية ، ولكنني أميل الى أن سبب التسمية نسبته الى رواس من أرض بابل التي تقع في النيل على نهر رواس أو رؤاس ، وكان يسكن هذه القرية ويذهب الى مسجد الكوفة لإلقاء دروسه على تلامذته ويقفل عائداً الى رؤاس 0وقيل إنه أول من وضع ، من الكوفيين ، كتاباً في النحو 0**

**ومن علماء هذه الطبقة معاذ الهرَّاء (ت187هـ) وكان في خلافة الرشيد وهو عم أبي جعفر الرؤاسي السابق ذِكره , وسُمي الهرَّاء لأنه كان يبيع الثياب الهروية المنسوبة إلى بلدة (هراة) بخراسان , وقد أخذ عنه الكسائي الذي أخذ أيضاً عن يونس بن حبيب 0**

**وفي هذا الطور نشطت البحوث النحوية كما نشط بجانبها البحث في أبنية الكلمات ، وفي الاشتقاق , واهتم بذلك الكوفيون وسبقوا البصريين في قواعد الصرف , ومعاذ الهرَّاء هو واضع علم الصرف 0**

**وفي عهد هاتين الطبقتين ازدادت فكرة القياس نمواً واتساعاً , واهتم الخليل إمام هذا العصر بتصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله , وقد ذكر الدكتور المخزومي (رحمه الله) في المجلس الذي توفي فيه أن الخليل أخذ القياس عن الإمام جعفر الصادق ( عليه السلام ) وكان هذا آخر ما نطق به هذا العالم الكبير ثم توفي 0**

**أما الكوفيون فاتجهوا في هذا الدور إلى التأليف وقد سبقت الإشارة إلى أن الرؤاسي شيخ الطبقة الأولى الكوفية كان أول من وضع كتاباً في النحو هو كتاب ( الفيصل ) , ونقف هنا قليلاً عند إمام النحو في هذا العصر الخليل بن أحمد الفراهيدي فنقول :-**

**لم يترك الخليل كتاباً جامعاً لمباحث النحو والصرف على الرغم من أنه فتح مسالك البحث فيها , غير أنه أودع جلَّ علمه في ( الكتاب ) الذي جمعه تلميذه سيبويه 0**

**روي أنه ترك الرسائل , فرسالة في معاني الحروف , وثانية في جملة آلات الإعراب ورسالة أخرى في العوامل , ويظن القفطي صاحب كتاب ( إنباه الرواة على أنباه النحاة ) أنها منحولة على الخليل أو منتحلة عليه ، رسالة رابعة تحمل عنوان ( شرح صرف الخليل ) ولعلها من عمل غيره 0**

**وكتاب سيبويه ضمَّ بين دفتيه علم أستاذه الخليل وقد شهد بذلك العلماء في العصور المختلفة من مثل قول ثعلب الكوفي : الأصول والمسائل في الكتاب للخليل , ويقول أبو الطيب اللغوي في كتابه (مراتب النحويين) : عقد سيبويه كتابه بلفظه ولفظ الخليل , ويقول أبو سعيد السيرافي في كتابه (أخبار النحويين البصريين) : عامة الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل (أستاذه) فكل ما نص سيبويه في قوله : (سألته) أو قال: ( من غير أن يذكر قائله ) , فهو يقصد : الخليل 0**

**وعقلية الخليل بن أحمد الفراهيدي عقلية تحليلية تركيبية ، ومتاعه في الحياة هو المتاع العقلي العلمي , وقد سبق الخليل محمد ابن أبي إسحاق الحضرمي وعيسى بن عمر في الجهد النحوي والصرفي , غير أنه هو الذي رفع قواعدهما وأركانهما وشاد صرحهما وبناءهما الضخم بما رسم من مصطلحاتهما وضبط من قواعدهما وبما شعَّب من فروعهما , فضلاً عن جهده المعروف بالدراسات الصوتية وتنسب له رسالة في الحروف نشرت ضمن ثلاث رسائل في الحروف حققها الدكتور رمضان عبد التواب ونشرت في مصر 0**

**ومن المباحث التي بسطها الخليل : المبتدأ والخبر وكان وأخواتها وإن وأخواتها والأفعال في باب ( ظن وأخواتها ) والأفعال اللازمة والمتعدية إلى مفعول واحد أو مفعولين أو ثلاثة مفاعيل , والفاعل وعامة المفاعيل على اختلاف صورها، والحال والتمييز والتوابع والنداء والندبة والاستغاثة والترخيم ، والممنوع من الصرف وتصريف الأفعال والمقصور والممدود والمهموز والمضمرات والمذكر والمؤنث والمعرب والمبني . وهو الذي سمى علامات الإعراب في الأسماء باسم الرفع والنصب والخفض وسمى الحركات في المبنيات باسم الضم والفتح والكسر وأما سكونهما فسماه (الوقف) وسمى الكسرة غير المنونة مثل : ( مررت بالجامعِ ) باسم الجر كما سمى السكون الذي يقع في أواخر الأفعال المضارعة المجزومة باسم الجزم 0**

**وكان يرى أن الألف والواو والياء في التثنية وجمع المذكر السالم هي حروف الإعراب نفسها , كما كان يرى أن أسماء الأفعال مبنية ولا محل لها من الإعراب مثلها في ذلك مثل ضمير الفصل , وهو الذي وضع تقسيم الكلمات في البحث الصرفي إلى مجردة ومزيدة , ملاحظاً أن المجردة لا تقل عن ثلاثة ولا تزيد على خمسة , وهو الذي وضع الميزان الصرفي في الأبنية وهو الذي وضع معجم العين – أول معجم في العربية- ونظمه بحسب نطق الحروف , فيكون بذلك قدَّم للعربية ما لم يستطع تقديمه أحد , ومعجم العين صحت نسبته إليه وإن اشتطَّ بعض الباحثين ونسبه إلى تلميذه الليث , والحقيقة أن عقلية الخليل وعبقريته تطالعك في هذا المعجم , والخليل أول من ذكر أحرف الزيادة وهي عشرة ( سألتمونيها ) ، ولا حظ أن هذه الأحرف تذكر في الميزان الصرفي , وهو أول من بحث في الإبدال والإعلال وأول من التفت إلى النحت , فقد كان قد رصد هذه الظاهرة اللغوية , واستعمل التحليل الذي ينصب على أدواته اللفظية وصيغها ,وهو أول من فتح باب التحليل اللغوي صوتاً وصرفاً ودلالة , ومن أمثلة ذلك أنه كان يرى أن كلمة ( هلمَّ ) من الممكن أن تكون استخلصت من كلمتين هما ( ها ) و ( لُمَّ ) الهاء للتنبيه أي : لُمَّ بنا , ثم كثر استعمال هذه الصيغة فحذف الألف من الهاء تخفيفاً لأن اللام بعدها وإن كانت متحركة فإنها في حكم الساكنة , وكأنها حذفت لالتقاء الساكنين فصارت ( هلُمَّ ) 0**

**ومن ذلك تحليله لفظة ( مهما ) الشرطية , فقد كان يرى أن أصلها ( ما ) ثم دخلت ( ما ) التي تدخل على أخواتها الشرطيات مثل ( أينما ) واستقبح التكرار في مثل ( ما ) ( ما ) فأبدلت الألف الأولى ( هاءً ) لأنها من مخرجها , وحُسِّن اللفظ بها 0**

**وأنت ترى في هذه النصوص تحليلاً لغوياً مستنبطاً من حياة اللغة وصيرورتها , فكأن الخليل بذلك يكتشف العلاقات المنطقية بين هذه الأصوات ويوظف استقراءه الشامل للغة فيقيس على النظير ويعلل تعليلاً صوتياً لظاهرة الإبدال 0وكان الخليل يتصف بذوق لغوي مرهف طالما أشار إليه تلميذه سيبويه في الكتاب وخاصة في مباحث الإعلال والإبدال فكان يتقن سنن العرب في كلامها وما تحبذه وتكرهه في العبارة والمفردة تركيباً وصوتاً , ويعود للخليل تثبيت نظرية العامل ومد القياس فيها , وإن كان بعض نحاة العصر يرون في نظرية العامل إثقالاً للنحو العربي درجاً على رأي ابن مضاء القرطبي في كتابه ( الرد على النحاة ) فإن الخليل انسجم مع عقليته التحليلية التركيبية حينما كان يحلل ويفسر الاستعمال اللغوي عبارة أو مفردة 0**

**أما كثرة التعليلات وزيادة العوامل مفترضةً بأمثلة تعليمية لا أصل لها في الاستعمال اللغوي عند فصحاء أهل اللغة في عصر الاستشهاد , فهذا من عمل النحاة المتأخرين الذين أثقلتهم عنايتهم المفرطة بالمنطق فمالوا إلى التقسيمات والتعريفات والتعليلات ، ولم تكن هذه علة في النحو وحده , وإنما أصابت البحث البلاغي أيضاً عند القزويني والسكاكي , وصفوة القول: إن نظرية العامل في النحو العربي إبداع أصيل لمفكر نحوي كبير هو الخليل بن أحمد وإنها ضرورة من ضرورات الدرس النحوي لو أننا أخذنا بها كما هي عند الخليل وليس كما عند المتأخرين 0 وأوضح الخليل فكرة إلغاء العامل وإبطال عمله فهو أول من ذكر ذلك إذ سمّى ( ما ) : كافة لأنها تكف ما تدخل عليه عن العمل في أحيان ولا تكفه في أحيان أخرى فيبطل عملها , فقال : إذا دخلت ( ما ) على ( إنَّ وأخواتها ) كُفت عن العمل – أُلغي عملها – ما عدا ( ليت ) فإنه يجوز معها الإلغاء والعمل إذا وليتها ( ما ) 0**

**ثم ذكر أهل الطبقات وتاريخ النحو بقية الطبقات وأبرز أعلامها ، وليس هنا مجال الاستطراد والتطويل ، وخير من فصل ذلك الزبيدي في طبقاته . والمهم عندنا أن نقف وقفة تأمل في إغفال كتب الطبقات لذكر أوائل النحاة في الكوفة التي شاع فيها الدرس النحوي في ظلال القرآن ، وازدهر البحث الصوتي والصرفي فضلاً عن النحوي بسبب كثرة القراءات في مصاحف الصحابة الذين استوطنوها . فمن المعروف أن أمير المؤمنين علي صلوات عليه أقام في الكوفة أغلب مدة خلافته ، ولم يقم في البصرة إلا قليلاً بعد موقعة الجمل ، وهو الذي أشاع وشجع الدراسة النحوية وحركة ضبط اللغة خدمةً للقرآن وصحة تلاوته التي يُتَعبّدُ بها ، فأمرٌ طبعي أن ينتعش الدرس اللغوي طوال وجوده في هذة الحاضرة التي اتخذها عاصمةً للدولة الإسلامية ، فإذا تذكرنا جهود الصحابة الذين سبقوه الى الكوفة على عهد من تولى الخلافة قبله من مثل جهود عبد الله بن مسعود الذي كان لمصحفه أثرٌ كبير في الدرس النحوي الكوفي ، وكذلك أثر مصحف أبي بن كعب وبقية الصحابة رضوان الله عليهم فإن الحركة اللغوية والنشاط النحوي في الكوفة أسبق منه في البصرة ، وكان يُذكر أصحاب عبد الله بن مسعود ونشاطهم اللغوي ، ويحيى بن وثاب (ت 103 ه ) وأصحابه ، وكان الفراء (يحيى بن زياد ت 204 ه) يحتج بالقراءات الواردة في مصاحفهم على المسائل التي يوردها في كتابه معاني القرآن . فأولية النحو العربي ونسأته بين الكوفة والبصرة بحاجة الى إعادة النظر والدراسة الموضوعية البعيدة عن التعصب والميل الى أيٍّ من المصرين ( العراقين).**